المسجد العتيق

لبلدة بني يزقن

(مزاب)

تأليف الأستاذ

يوسف بن بكير الحاج سعيد

1722 17

1430 هـ/ 2009 م

1722

المسجد العتيق

لبلدة بني يزقن (مزاب)

تأليف الأستاذ:
يوسف بن بكير الحاج سعيد

1430هـ/ 2009م

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

حقوق الطبع محفوظة

طبع : المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية
الهاتف / فاكس : (029) 88. 36. 53
المنطقة الصناعية : (029) 87. 34. 34
Imprimerie.El-Arabia@caramail.com

الإيداع القانوني رقم 2009 / 352
ردمك 8 -15- 845 -9961 I.S.B.N

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين وأسوة للمتّقين، داعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

إنّ المسجد العتيق لبلدة بني يَزْقَنْ معلم تاريخي فريد، وإنجاز حضاري عريق، يستحقّ من المعماريين ومن الدارسين للتاريخ كلّ اهتمامهم وعنايتهم، شكرا لله تعالى أن حفظه لهم من الهدم والتغيير، مثلما حدث لمعالم أخرى في المنطقة.

إنّ هذا المسجد ظلّ وجيدا في البلدة إلى سني التسعينيات من القرن الماضي التي شهدت فتح مصلّى باعبد العظيم ومصلّى أُوجُّوجَنْ. وبعد تدشين المسجد الكبير بطَالَمْتْ، حافظ على ريادته، حيث لا ينبعث الأذان إلاّ منه ولكلّ أحياء البلد، وتبثّ الدروس والبلاغات منه بأجهزة الإرسال إلى ما سواه من المصلّيات، ويمتاز بتنفيذ الأوقاف فيه دون غيره، علمًا أنّ الأوقاف المنفّذة في المسجد الكبير محلّها الأصلي مصلّيات المقابر.

لكن مع مرور السنين، ألاحظ انخفاض عدد المصلّين في المسجد العتيق، واقتصار الذين يؤمّونه على من يشعر بالحنين إليه وإلى عمارته، وأخشى أن يصاب بالهجران بعد مدّة، بعد فناء هذا الجيل الذي لا يزال يعمره.

وفاءً لهذا المسجد الذي ألفته صبيًّا وشابًّا وكهلا، أنجزت هذا البحث المتواضع في شأنه العالي، داعيا الله أن يتقبّله منّي وأن يتقبّل من كلّ من تعاقب

على الصّلاة فيه فرضًا وسنّة ونافلة، وأن يتقبّل جهاد العزابة الذين شغلوا مختلف الوظائف فيه تِباعًا، من مشايخ وأئمّة ومؤذّنين وفقهاء ووكلاء وغسلة للأموات، والقائمين برعايته وتنظيفه.

إنّي أتأسّف وأشكو من قلّة الوثائق التاريخية، إن لم أقل من عدمها. والغريب الذي لا يكاد يصدّق خلوّ المسجد من أيّ أرشيف! ندائي لمن في حوزته وثيقة تتعلّق بموضوع هذا البحث أن لا يبخل عنّي بالاطّلاع عليها، قصد تصحيح ما يكون قد اندسّ فيه من أخطاء، وتوضيح ما كان غامضا، وإكمال ما نقص، ليكون العمل متقنا.

وفي محاولة للإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، قسمناه إلى مدخل تمهيدي وخمسة فصول، ليسهل على القارئ الاستفادة من البحث.

أرجو أن أكون بهذا العمل قد أسهمت في تعريف إخواني القرّاء بمؤسّسة دينية واجتماعية وثقافية، أسّست على تقوى من الله ورضوان، أعتزّ بها وأحبّها وأتعلّق بها.

بني يزقن، يوم الأحد 4 ذي القعدة 1429هـ

الموافق 2 نوفمبر 2008م

مدخل

قبل الشروع في تناول موضوع البحث، يجدر بي أن أمهّد بالإشارة إلى تأسيس بني يزقن واتّساعها، وإلى مسجد تافِلاَلْتْ.

1- تأسيس بلد بني يَزْقَنْ:

أصل البلد قرية تافِلاَلْتْ التي تشكّل حاليا الجزء الأعلى من قصر بني يزقن. توسّعت القرية عند استقبال سكان القرى المجاورة المندثرة كلّها: تِرشِينْ، ثْلاتْ مُوسَى، أَقْنُونَّايْ، بُوكْيَاوْ، وقسمًا من سكان مُوركِي، وبعض سكان ثْمازَّارْتْ[1].

إذا اعتبرنا هذا التوسّع منطلقا للبلدة، فإنّ تاريخ تأسيس بني يزقن يكون عام 720هـ/1321م. أمّا إذا اعتبرناها امتدادا لقرية تَافِلاَلْتْ فإنّ تأسيسها يكون سابقا لهذا التاريخ.

أنشئت المدينة على قمّة هضبة، مراعاة لقدرتها على الدفاع ضدّ المغيرين، ووقاية لها من فيضانات الأودية، وحفاظا على الأراضي الزراعية في السهول.

شهدت بني يزقن توسعات متتالية عبر القرون، ودحرًا لأسوارها وأبوابها وأبراجها، كان آخرها بين 1860 و1868م. التوسعات التي حدثت بعد الاستقلال وقعت خارج السور.

1- يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، ط2، ص17.

2- مسجد تَافلاَلْتْ:

في حيّ تَافلاَلْتْ مسجد مهجور، لم يبق منه إلاّ صحنه أو جزء منه، قدّرت مساحته بسبعة وعشرين مترا مربعا. أمّا بيت الصّلاة ومرافقه، فقد تمّ تقسيمها إلى منازل. قد يكون هذا التصرف نتيجة الحادث الأليم الذي تعرّض له هذا المسجد في القرن التاسع الهجري، حيث دخله عدد من آل مليكة في ليلة من الليالي وأحرقوا خزانة كتبه[2].

كانت تتلى في صحن هذا المسجد، إلى عهد قريب، سورة الأنعام، ليلة الثلاثاء من كلّ أسبوع، بعد صلاة العشاء.

يلاحظ على مسجد تافلالت خلوّه من المئذنة، شأنه في ذلك شأن مسجد أَغَرْمْ أَنْوَدَّايْ لمليكة الذي لا يزال عامرًا إلى اليوم.

2- نفس المصدر، 93.

الفصل الأول

مراحل بناء المسجد العتيق

1- نواة المسجد:

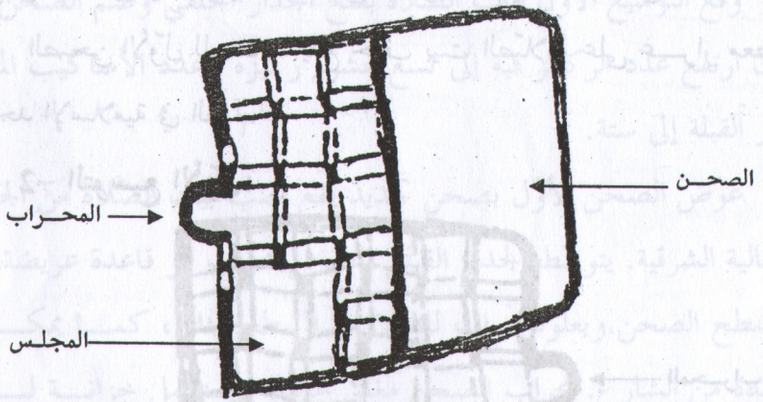

الشكل رقم 1 نواة المسجد العتيق

هذا الشكل والأشكال رقم 2، 3، 5، 6، 7، 8، 9 التي بعده، اقتبستها من الشكل رقم 10 الذي عنونه الدكتور بالحاج معروف بـ"مخطط أفقي للطابق الأرضي بالمسجد الكبير ببني يزڤن" في كتابه العمارة الإسلامية – مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية، ص120.

أسّس مسجد بني يزڤن العتيق في بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وعمره حاليا سبعة قرون، وأقيم شمال شرق قرية تافلالت أعلى الهضبة.

يحتوي بيت الصّلاة عند التأسيس على سبع ركائز، تقسم المصلّى إلى ثلاثة أساكيب موازية لجدار القبلة، وخمس بلاطات عمودية عليه. مساحة بيت الصّلاة الأوّل حوالي خمسين مترا مربعا. نوع العقود في هذه النواة نصف دائري. يتوسط المحراب جدار القبلة، وهو المحراب المستعمل حاليا.

العمود الأوّل في الزاوية الشرقية لبيت الصّلاة أُحدث عند التوسيع الثاني للمسجد، حيث كان بهذه الزاوية مجلس، أدرج في جداره القبلي إناء فخاري لجمع نوى التمر، وبنيت مشكاة أعلى العمود الجوفي لهذا المجلس.

الصحن الأوّل للمسجد يقع خلف بيت الصّلاة، على غرار معظم المساجد الإسلامية في العالم.

2- التوسيع الأوّل:

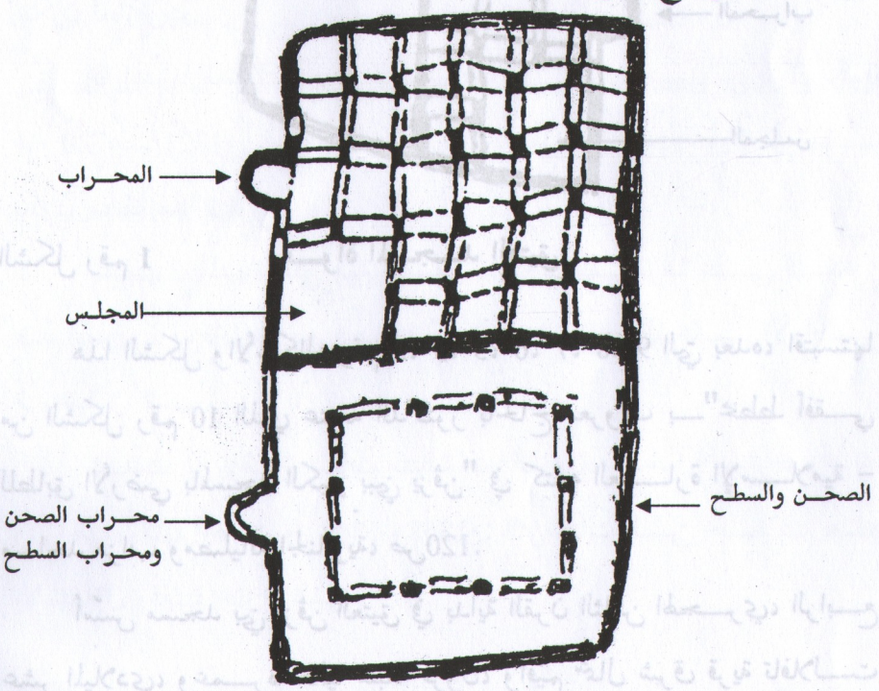

الشكل رقم 2 المسجد بعد التوسيع الأوّل

نتتبّع الآن مراحل توسيع المسجد العتيق مستندين إلى:

- الفروق الملاحظة على الأعمدة والعقود،
- مواقع تلاقي مراحل التوسيع الظاهرة أحيانا على السقف والأعمدة،
- المظهر الخارجي للسور القبلي للمسجد،
- فرضية توسط المحراب لبيت الصّلاة وللصحن ولسطحه.

بناء على ما تقدّم ضبطت ستة توسيعات محتملة.

وقع التوسيع الأوّل لبيت الصّلاة بفتح الجدار الخلفي وضمّ الصحن إليه. بذلك ارتفع عدد الركائز فيه إلى تسع عشرة ركيزة وعدد الأساكيب الموازية لجدار القبلة إلى ستة.

عوّض الصحن الأوّل بصحن جديد يقع جنب بيت الصّلاة من الجهة الشمالية الشرقية. يتوسّط الجدار القبلي للصحن محراب ذو قاعدة عريضة، يمتد إلى سطح الصحن.ويعلوه محراب للصّلاة في السطح الثاني، كما يمكن أن نشاهده من الشارع. محراب الصحن مغلق حاليا، ويستعمل خزانة لبعض أجهزة التسميع.

3- التوسيع الثاني:

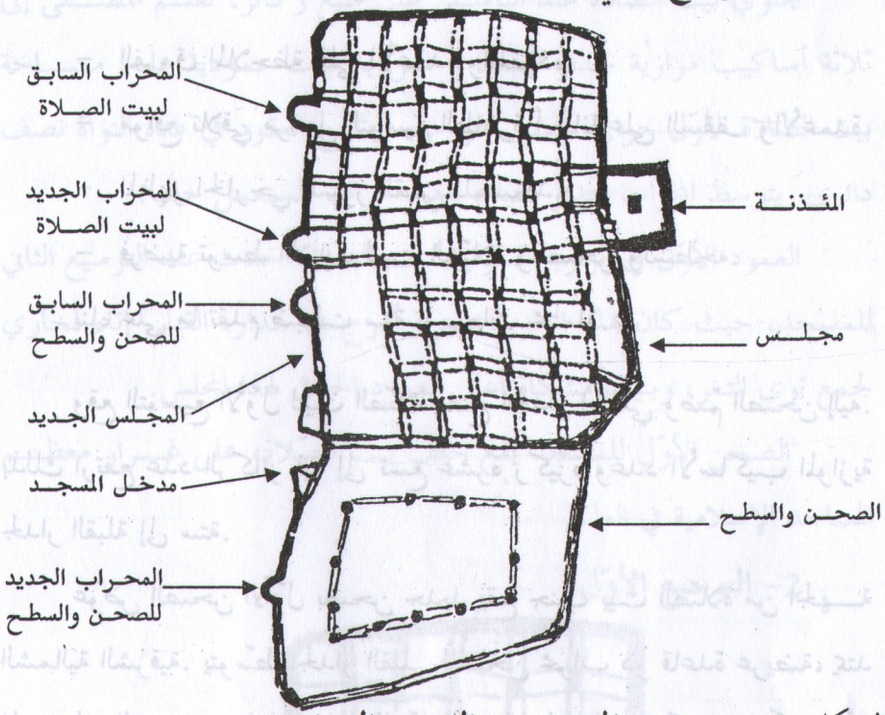

الشكل رقم 3 المسجد بعد التوسيع الثاني

التوسيع الثاني لبيت الصّلاة وقع في اتجاهين: في الاتّجاه الشمالي الغربي بإضافة أسكوبين موازيين لجدار القبلة، وفي الاتجاه الشمالي الشرقي بضمّ الصحن الثاني إلى بيت الصّلاة. بذلك أصبح عدد الأساكيب الموازية لجدار القبلة ثمانية، وعدد البلاطات العمودية عليه أحد عشر.

أُحدث على جدار القبلة محراب يتوسّط بيت الصّلاة، وتمّت المحافظة على المحراب الأوّل، كما جرى بذلك العرف العام عند الإباضية. يقول الشيخ فرحات الجعبيري: "لقد أصبح هذا عرفا في جربة تقريبا، إذ جلّ الموسعين يتركون المحراب الأصلي علامة على ذلك"[3].

3- نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، 247.

ألغي المجلس القديم وأُقيمت وسطه دعامة، واستحدث مجلسان، أحدهما في الزاوية الشرقية، والآخر في الزاوية الشمالية محاذيا لقاعدة المئذنة.

في هذا التوسيع الثاني، رفعت المئذنة بطابق أرضي مدخله من بيت الصّلاة يقابل المحراب الجديد، عليه سبعة طوابق لا صلة لها بالطابق الأرضي، يتمّ الصعود إليها من السطح ومن خارج بيت الصّلاة، طبقا للقاعدة التي أوردها الشيخ فرحات الجعبيري التي تحدّد موقع "المدارج للأذان في الزاوية الشمالية الشرقية خارج المسجد"[4].

ارتفاع المئذنة اثنان وعشرون مترًا، شكلها هرم ناقص ذو قاعدة رباعية أبعادها ما بين 3,60م و4م، عدد درجاتها خمس وستون[5].

الشكل رقم 4 مئذنة المسجد العتيق

هذا الشكل يحمل رقم 11 في مؤلف الدكتور بالحاج معروف الآنف الذّكر، صفحة 126.

4- المصدر السابق، 11.
5- د. بالحاج معروف: العمارة الإسلامية، مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية، 233.

آخر مؤذن نادى إلى الصّلاة من أعلى هذه المئذنة الشامخة هو المرحوم محمّد بن إبراهيم عُمَارَهْ المتوفّى عام 1982، حيث في عهده زوِّد المسجد العتيق بجهاز تكبير الصّوت، وأوّل من أذّن بواسطة المسمِّع المرحوم صالح بن محمّد بن باحمد، وذلك سنة 1967.

في هذا التوسيع الثاني، عوّض الصّحن الثاني بصحن جديد بسطحه، جنب بيت الصّلاة، من الجهة الشمالية الشرقية كذلك، يحدّه الزقاق الذي أصبح فيما بعد يُعرف بسقيفة الأنعاش. زوِّد هذا الصحن بمحراب يتوسّطه، ويعلوه محراب للسطح الجديد، هو المستعمل حاليا للصّلاة في ليالي الصيف.

4- التوسيع الثالث:

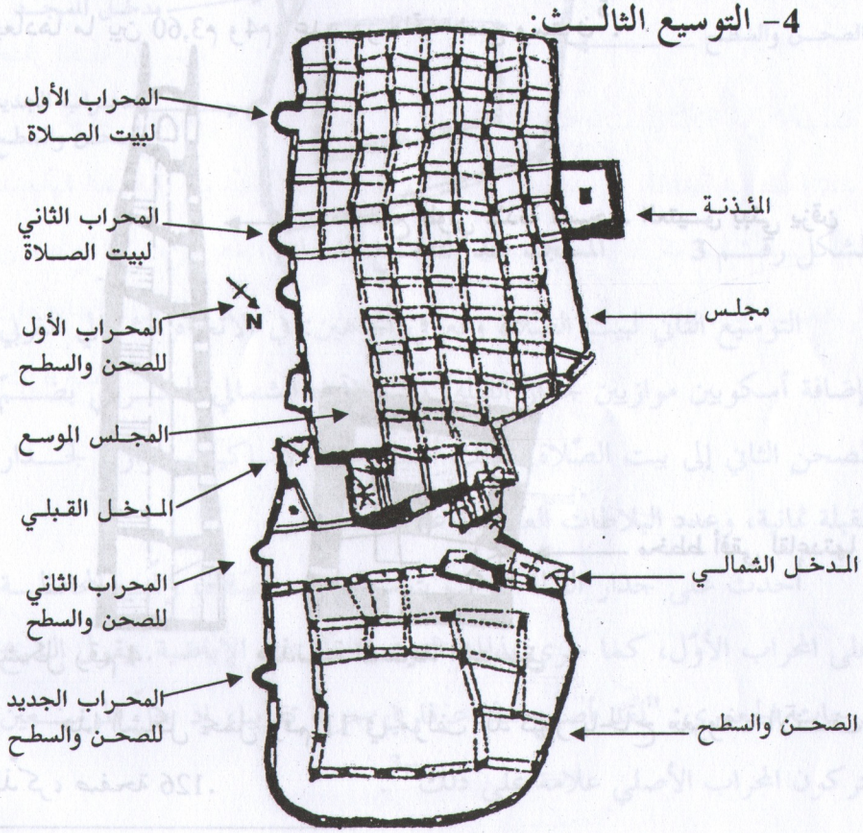

الشكل رقم 5 المسجد بعد التوسيع الثالث

وقع خصم شطر من الصحن وإلحاقه ببيت الصّلاة، ليُصبح عدد البلاطات العمودية على جدار القبلة ثلاث عشرة، وعُوّض ذلك بتوسيع ما بقي من الصحن إلى الجهة الشمالية الشرقية، بتسقيف الزقاق الذي كان يحدّه وبتجاوزِه.

هذا الإجراء استلزم إحداث محراب جديد للصحن فوق مدخل سقيفة الأنعاش، يعلوه محراب للسطح. عند هذا التوسيع اكتمل عدد محاريب المسجد: خمسة في الطابق الأرضي، وثلاثة في الطابق العلوي، تمّت المحافظة عليها جميعا، ويمكن مشاهدتها من الشارع القبلي.

5- التوسيع الرابع:

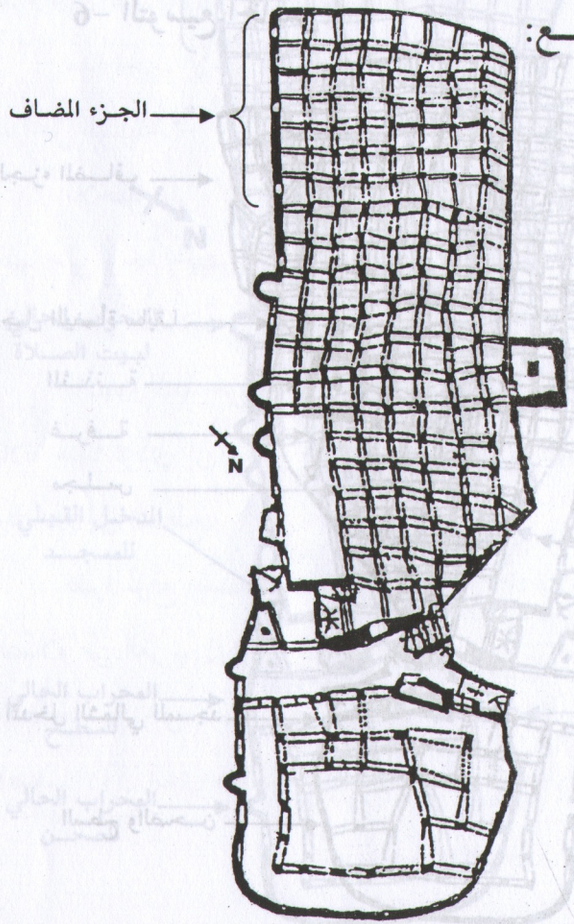

الشكل رقم 6 المسجد بعد التوسيع الرابع

هذه العملية اتّجهت للجهة الجنوبية الغربية، وذلك بإضافة سبع بلاطات أخرى لبيت الصّلاة، ولم تحدث أيّ تغيير في الصحن وسطحه. عندئذ عاد الإمام إلى المحراب الأصلي الذي استرجع توسطه لجدار القبلة.

يمكن تتبّع حدود هذا الجزء المضاف إلى بيت الصّلاة بملاحظة عنصر جديد، وهو تثبيت أوتاد خشبية لتعليق الثياب، أعلى كلّ الأعمدة الجديدة.

الزاوية الجنوبية لهذا التوسيع الرابع هي اليوم مكان انعقاد مجلس تلاوة القرآن، ما بين المغرب والعشاء من ليلة الجمعة، للطلبة غير العزابة.

6- التوسيع الخامس:

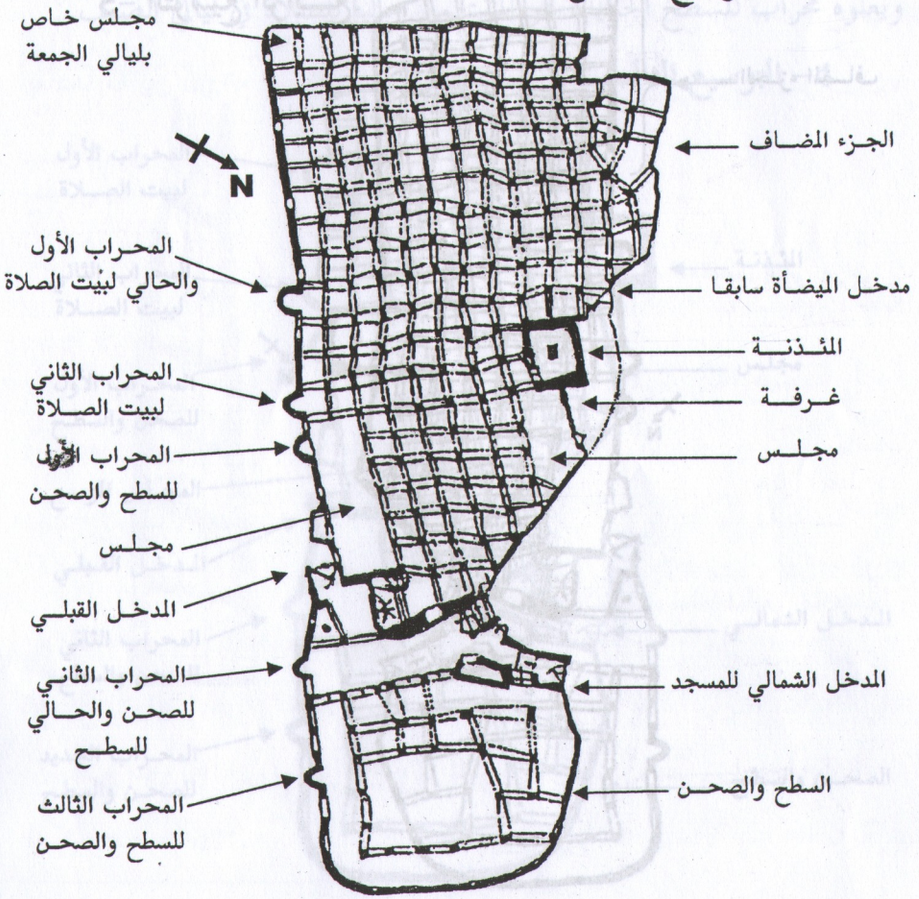

الشكل رقم 7 المسجد العتيق بعد التوسيع الخامس

هذا التوسيع اتّجه نحو الجهة الشمالية الغربية للمسجد، بإضافة خمسة أساكيب غرب المئذنة، تستعمل حاليا جناحا للنساء، له مدخل من الزقاق الجوفي للمسجد.

هذه المرحلة من التوسيع لم تمسَّ الصّحن وسطحه، وكذلك الحال بالنسبة للتوسيع الأخير.

7- التوسيع الأخير:

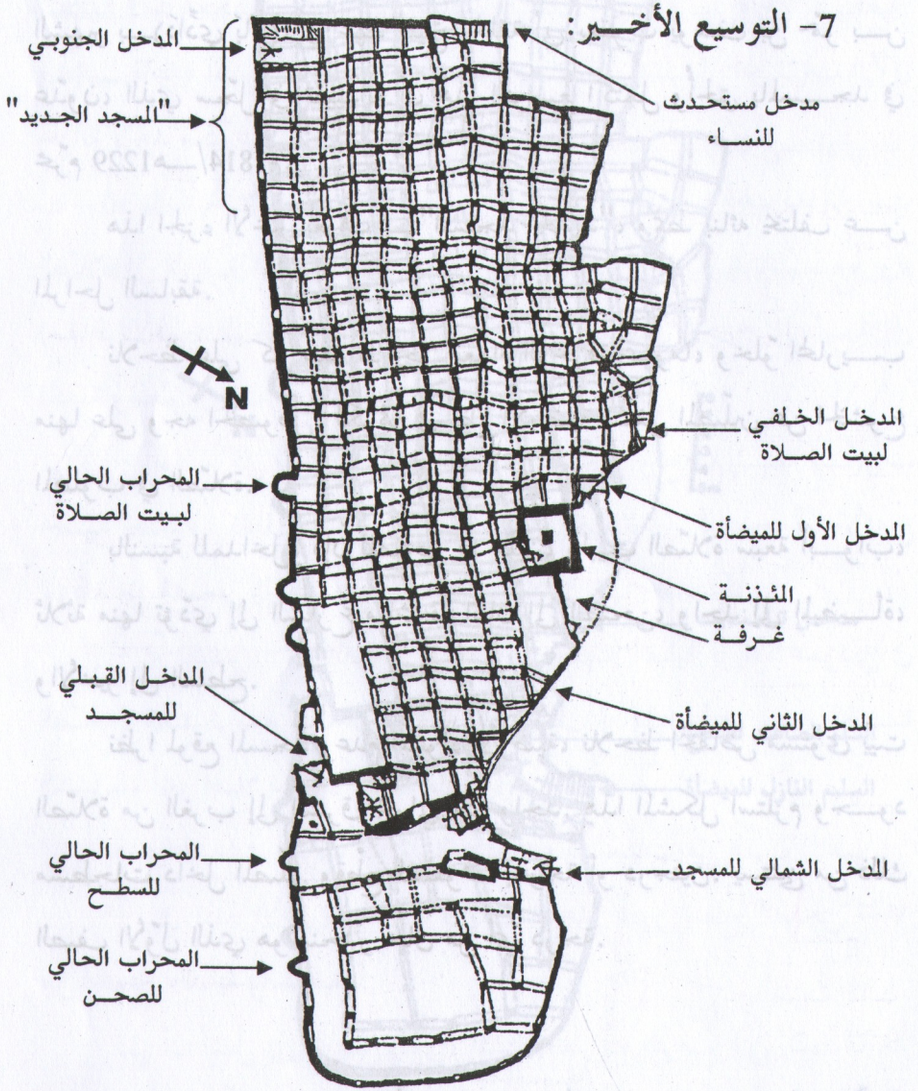

الشكل رقم 8 المسجد بعد التوسيع الأخير

حدث هذا التوسيع في نفس اتجاه الرابع، بإضافة ستّ بلاطات أخرى، وأصبحت مساحة بيت الصّلاة تقارب ألف متر مربع، وعدد أعمدتـــه 224 عمودا. أمّا المساحة الإجمالية للمسجد فتقدّر بحوالي 1.600 متر مربع[6].

قام بهذا التوسيع الأخير السيّد الفاضل داود بن محمّد بن موسى أمـــيني الشهير بـــ(دَادِّي بَابَا)، في عهد شيخ الحلقة أبي يعقوب يوسف بن حمّو بـــن عدّون، الذي سجّل في تقييداته أنّ هذا التوسيع اكتمل وأُلحق بالمســـجد في محرّم 1229هـــ/1814م.

هذا الجزء الأخير يعرف بـــ"المسجد الجديد"، ونمط بنائه يختلف عـــن المراحل السابقة.

نلاحظ على كلّ هذه المراحل انعدام الزخرفة عموما، وخلوّ المحاريـــب منها على وجه الخصوص، لكونها في نظر الإباضية تشغل المصلّين عن الخشوع المطلوب في الصّلاة.

بالنسبة للمداخل، فإنّ للصحن مدخلين، ولبيت الصّلاة سبعة أبـــواب، ثلاثة منها تؤدّي إلى الشارع مباشرة، اثنان إلى الصحن، واحد إلى الميضـــأة، والأخير إلى السطح.

نظرا لموقع المسجد وعدم استواء الأرضية، نلاحظ انخفاض مستوى بيت الصّلاة من الغرب إلى الشرق بحوالي متر واحد. هذا المشكل استلزم وجـــود مسطحات داخل المصلّى وقطْع الصفوف بدرجة أو درجتين. يستثنى من ذلك الصف الأوّل الذي هو منحدر خال من أيّ درجة.

6- نفس المصدر، 116.

8- أهمّ التغييرات التي وقعت في بيت الصّلاة والصحن وسطحه بعد التوسيع الأخير:

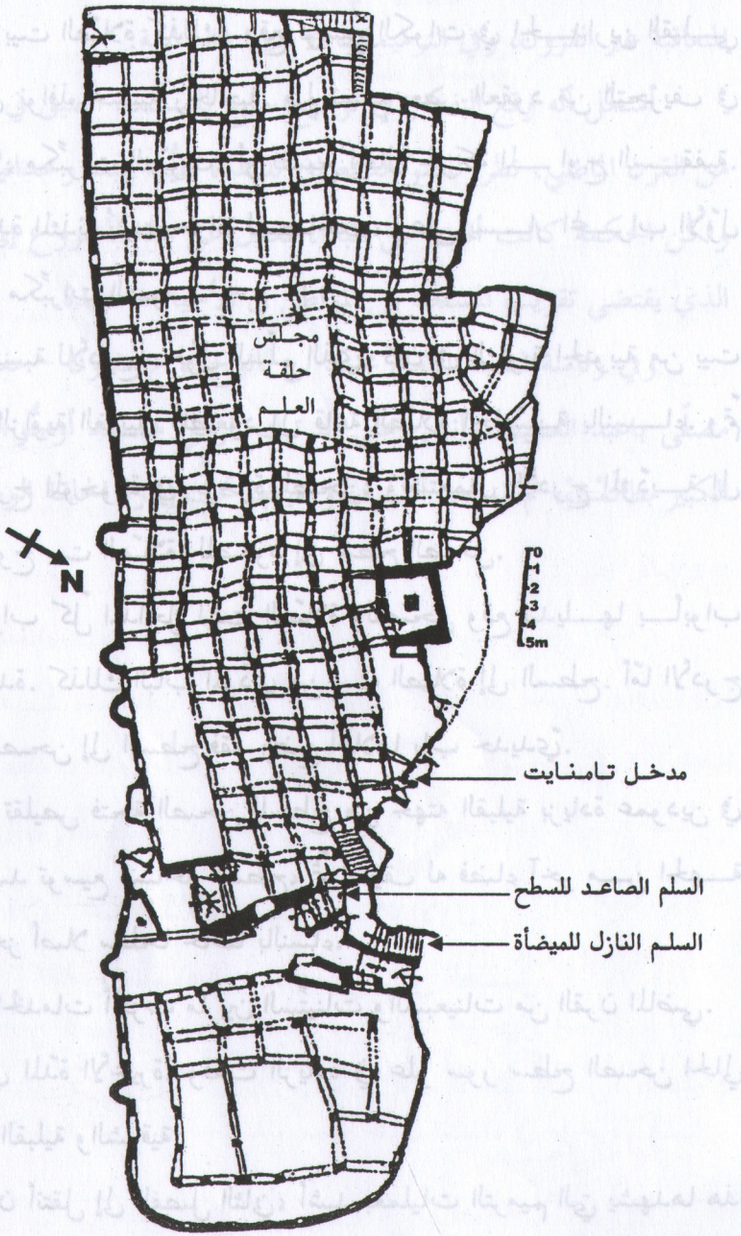

الشكل رقم 9 المسجد حاليا

– في وسط بيت الصّلاة، نزعت ستّة أعمدة لفسح مجال مجلس حلقة العلم المنعقدة بين الظهر والعصر مدّة شهر رمضان، وزوِّد بجدار صغير للاتّكاء.

– في بيت الصّلاة كذلك، وقع توسيع الكوات في الجدارين القبلي والشرقي إلى نوافذ خشبية زجاجية. ولم تسلم بعض العقود من التحريف في شكلها لإيواء مكبِّرات الصّوت، أو لفسح المجال لحركة المراوح السقفية. وبجانب قاعدة المئذنة بُنيت خزانة للمصاحف، وعلى يسار المحراب الأوّل خزانة لأحد مكبِّرات الصوت.

– بالنسبة للأدرج، حوّل السلّم الذي كان في الزاوية الجنوبية من بيت الصّلاة إلى الزاوية الغربية، للصعود إلى قاعة الصّلاة الخاصّة بالنساء. وتمّ إسقاط الأدرج الموجودة في مؤخرة الصحن، واستعمال الأدرج المؤدّية إلى المئذنة وسطوح بيت الصّلاة، للصعود إلى سطح الصحن.

– أبواب كلّ المداخل لبيت الصّلاة وللصحن وقع تبديلها بأبواب خشبية جديدة. كذلك الباب المؤدّي من بيت الصّلاة إلى السطح. أمّا الأدرج المؤدّية من الصحن إلى السطح فقد وضع أعلاها باب حديديّ.

– تمّ تقليص فتحة الصحن للسطح من جهته القبلية بزيادة عمودين في الصّحن، قصد توسيع مساحة السطح، ثمّ أضيف له فضاء آخر من الجهة الشمالية، أنجز أصلا سطحا خاصًّا بالنساء.

هذه الخدمات أُنجزت ما بين الستّينات والسبعينات من القرن الماضي.

– في المدّة الأخيرة، وقعت الزيادة في علوّ سور سطح الصحن الحالي من الجهتين القبلية والشرقية.

قبل أن أنتقل إلى الفصل الثاني، أشيد بعمليات الترميم التي يشهدها هذا المعلم التاريخي كلّما دعت الحاجة إليها، وآخرها تلك التي تمّت بين عامي

2003 و2004، شملت المئذنة والصحن والسطح وسور بيت الصّلاة، وأدعو الله تبارك وتعالى أن يتقبّل من كلّ من أسهم في بناء هذا المسجد وفي توسيعاته المتعاقبة عبر القرون، وفي الترميمات الأخيرة والسابقة.

أسجّل أنّه وقع التفكير في توسيع سابع للمسجد العتيق في الثمانينات من القرن الماضي، نظرا للنموّ الديمغرافي للبلدة، تقيُّدا بمبدأ وحدانية المسجد، ولكن الحكمة كانت أقوى من المبدأ، فعدل عن هذا المشروع إلى الصّواب الذي يقتضي تقريب المسجد من المواطن في الأحياء الجديدة.

وفي رئاسة فضيلة الإمام محمّد بن بانوح نوح مفنون –حفظه الله– فتح مصلّى باعبد العظيم، وأنشئ على الترتيب الزمني مسجد أوجُّوجَن، فالمسجد الكبير بطالَمْتْ، ثمّ مسجد أَعمُود، وجميعها تحت إدارة الحلقة الوحيدة.

الفصل الثاني

المرافق المكمِّلة للمسجد العتيق

1- الأجنحة الخاصّة بالنساء

الشكل رقم 10 مخطط أفقي لبيت الصلاة الأوّل
الخاص بالنساء في مسجد بني يزڤن العتيق

هذا الشكل أخذته من كتاب الدكتور بالحاج معروف السابق ذِكره، صفحة 131.

للنساء ثلاث غرف صغيرة متّصلة، بُنيت خلف المئذنة، في مؤخرة الطابق العلوي، وهي غير منتظمة الشكل، ومستوياتها مختلفة. تطل على مصلّى الرجال من

خلال فتحات صغيرة متجهة نحو المحراب، لسماع صوت الإمام، والاستماع إلى تلاوة القرآن، ومتابعة دروس المشايخ التي تلقى بالمجلس المحاذي للمئذنة. تصعد النساء إلى هذه الغرف بواسطة أدرج من الزقاق الجوفي للمسجد.

في القرن الماضي، أضيفت للنساء الصفوف الخلفية الخمسة من بيت الصّلاة، بعد عزلها عن بقيّة المصلّى بواسطة ستائر الحلفاء.

أمّا صيفا، فقد كان هناك مترلان قبلة المسجد، يترك أصحابهما الباب مفتوحا، لصعود النساء إلى سطحهما قصد سماع تلاوة القرآن، بين المغرب والعشاء.

وفي سنة 1964، بُني على أنقاض إحدى المحاضر الثلاث وعلى أنقاض مراحيض "باعيسى"، سطح خاص بالنساء، جرى بعد ذلك إضافته إلى سطح الرجال.

وعندما ضاق بيت الصّلاة بالرجال، أنشئت قاعة كبيرة للنساء فوق الجزء المعروف بـ"المسجد الجديد"، عوضا عن الأقسام الأربعة التابعة للجابرية، التي كانت قد أخذت في السبعينات مكان مخازن التمر الجديدة. وزوِّدت هذه القاعة بسطح فوقها خاص بالنساء، واستعاد الرجال الصفوف الخلفية من بيت الصّلاة.

لكن، في سنة 2001، عندما فتح المسجد الكبير بطالَمْت أبوابه، أعيدت النساء إلى حيث كنّ، بعد عزل صفوف المؤخَّرة بصفائح خشبية، وتمّ الاستغناء عن القاعة المذكورة آنفًا، والتي كانت تحتاج إلى التدفئة بالغاز شتاء.

2- المراحيض:

كانت إلى جانب إحدى المحاضر لتعليم الصبيان مجموعة من المراحيض التقليدية لقضاء الحاجة، تُعرف باسم "مراحيض باعيسى"، يتمّ التطهّر فيها

بالطوب، تفصل بينها جدارن لا يزيد علوّها عن ثلاثة أذرع. هذا الطوب كان يصنع في صحن المسجد في حملات تطوعية. ولمّا بُنيت المدرسة الجابرية المجاورة للمسجد، وقع الاستغناء عنها، وعوضت بمراحيض حديثة بنيت تحت فناء المدرسة، ويتمّ التطهّر فيها باستعمال الورق.

هذه المراحيض أُبعدت عن المؤسّسة عام 2000، إلى حيث هي الآن.

3- الميضـــأة:

يوجد وراء المئذنة ممرّ مسدود كان من قبل يؤدّي إلى ميضأة قديمة، وفي عهد شيخ المسجد الحاج صالح بن عمر لَعْلِي، شرع في حفر بئر المسجد في شعبان 1336هـ/ ماي 1918م، وقام الشيخ بتجديد الميضأة وتوسيعها.

هذه الميضأة كانت تشتمل على موقد لتسخين الماء بالحطب، وبها حجرات للاغتسال، وحجرات أخرى جدرانها لا يزيد علوّها عن ثلاثة أذرع خاصّة بالاستنجاء، ودكّة يجلس عليها من يريد الوضوء.

بالمحاذاة مع "مراحيض باعيسى"، غرست ثلاث نخلات ترتوي من المياه المستعملة في الميضأة، كما غرست نخلة أخرى لامتصاص الماء الراشح من دلاء الماء الشروب عند المدخل الجنوبي للصحن.

حوِّل جزء من الميضأة إلى مقرّ اجتماعات العزّابة (تَامْنَايْتْ)، بعد إنشاء ميضأة جديدة للرجال وأخرى للنساء، في سنة 1964، في دهليز تمّ حفره في البقعة التي كانت تشغلها إحدى المحاضر و"مراحيض باعيسى"، ووقع وصل ميضأة الرجال ببيت الصّلاة بواسطة نفق. فوق الميضأتين بنيت قاعتان متجاورتان لكلّ منهما مدخل من الزقاق الجوفي.

يعمل موقد الميضأة حاليا بالغاز الطبيعي عوض الحطب.

4- سطـــوح بيت الصّلاة:

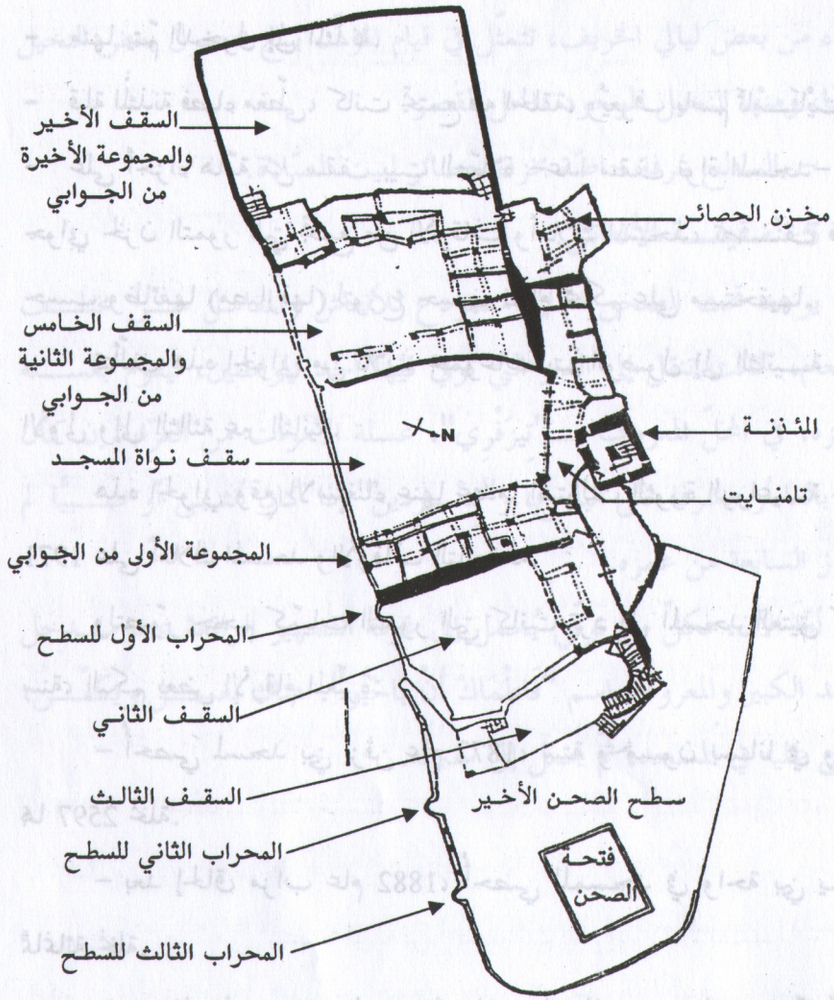

الشكل رقم 11 **مخطط أفقي لمجموعة سطوح المسجد العتيق ببني يزڤن**

هذا الشكل مأخوذ من كتاب الدكتور بالحاج معروف، صفحة 130.

صلوات المغرب والعشاء والفجر تقام صيفا في سطح أروقة الصحن الحالي. أمّا سطوح بيت الصّلاة، فقد كان بعض فقهاء الإباضية يرون كراهة

الصّلاة فيها[7]. فهي تستغل لأغراض أخرى:

- منها يتمّ الدخول إلى المئذنة.
- قبلة المئذنة فضاء مغطّى، كانت تجتمع فيه الحلقة، ويُعرف باسم تَامْـنَايْتْ.
- على أجزاء هامّة من سقف بيت الصّلاة -عدا سقف نواة المسجد- بنيت جوابي لخزن التمور التي تجمع من الأوقاف وأملاك المسجد، تصنّف فيها حسب وظائفها (مصارفها) لتوزع حسب نظام محكم على مستحقيها.

تتألّف هذه الجوابي من ثلاث مجموعات يتمّ الوصول إلى الثانية عبر الأولى وإلى الثالثة عبر الثانية.

هذه الجوابي وقع الاستغناء عنها عندما استولت الثورة الزراعية عام 1971 على أملاك المسجد والأوقاف التابعة له.

ولتصوّر حجم كمّيات التمور التي كانت ترِد إلى المسجد العتيق كلّ سنة، إليكم بعض الأرقام المعبِّرة:

- أُحصيَ لمسجد بني يزڤن عام 1872، ستة وخمسون بستانا في ورقلة، بها 2597 نخلة.
- بعد إلحاق مزاب عام 1882، أُحصي للمسجد في واحة بني يزڤن ثمانمائة نخلة.

ما يرِد إلى المسجد من التمور التي لا تصلح للخزن، والفائض ممّا تحتاجه الميضأة من الحطب والبلح الذي يجمع من نخيل المسجد عند عملية التعديل، في بداية الصيف، وكُتل ملح السباخ المستورد من ورقلة، يُباع بالدلالة العمومية في صحن المسجد بين أذان العصر والإقامة، ويتولّى هذه الدلالة المؤذّن.

7- محمد البطاشي: غاية المأمول في علم الفروع والأصول، ج2، 147.

وهناك عملية أخرى للدلالة كانت تتمّ في سطح الصحن قبل صلاة العشاء من بعض ليالي الخريف، تتمثّل في قيام المؤذّن ببيع محصول بعض النخيل خرصًا، ومنها النخيل الموجود داخل القصر.

- بالسطح غرفة خاصّة بخزن حصائر لبيت الصّلاة.

5- سقيفة الأنعاش:

يوجد تحت الصحن الحالي مستودع للأنعاش والمغاسل من مختلف الأحجام، كانت تنقل إلى الدار التي توفي فيها أحد المواطنين، ليقوم بغسله وتجهيزه، في المحلّ المعروف بـ"تِيزَفْرِي"، غسلة الأموات من العزّابة إن كان ذكرًا بالغا أو مشرفا على البلوغ، و"تِمْسِيرِدِينْ" إذا كان أنثى أو صبيًّا لم يتجاوز السابعة من عمره.

أمّا الآن، فكلّ من توفّي يُحمل إلى غرفة التجهيز الواقعة عند مدخل المسجد الكبير والمعروفة باسم "فَاطْمَاكْ أَنْ بَاحيُّو". هناك يغسل ويكفّن، ويصلّى عليه في المسجد، ثمّ يحمل إلى مقبرته.

الفصل الثالث

المحلاّت الخاصّة بالعزابة

1- تَامْنَايْتْ :

هي المقرّ الرسمي لاجتماعات حلقة العزّابة، كانوا يلتقون فيها يوميا بعد صلاة العصر، هذا المقرّ كان قبلة المئذنة في الطابق العلوي، بعيدا عن أعين الفضوليين وآذانهم. للوصول إليه، تصعد الأدرج من الصحن وتجتاز مدخلين يحكم إغلاقهما ببابين خشبيين مصنوعين من جذوع النخيل.

ولّما حوّلت الميضأة إلى حيث هي الآن، خصّص جزء من الميضأة القديمة ليكون مقرّ اجتماعات العزّابة في الطابق الأرضي، ومدخله من بيت الصّلاة. يجتمع العزّابة حاليا فيه بعد صلاة العصر من أيّام شهر رمضان، وعند انضمام أحد الطلبة إلى هيئة إِرْوَانْ. أمّا اجتماعات الحلقة الدورية فتعقد الآن بالمقرّ الجديد الموجود بالمسجد الكبير في طَانَمْتْ، والذي هو كذلك مقر اجتماعات مجلس عمّي سعيد الشهرية. كلا المقرّين مجهز بالتدفئة والتكييف ودورة مياه خاصّة.

يحدث للعزابة أن يتشاوروا دون أن يجتمعوا في تَامْنَايْتْ، وذلك في مجلس التلاوة الخاصّ بهم ليلة الجمعة، بعد ختم سورة الكهف. لذلك يترك العوام حريما حول هذا المجلس. وفي هذا المعنى، عند الانتهاء من صلاة الجماعة عمومًا، ينفض المصلون من حول العزّابة، حتّى لا تصل إلى آذان العامّة ما قد يتفوّهون به. كلّ ذلك تقديرا للحلقة واحتراما لأعضائها. فأين نحن الآن من هذه الأخلاق، وصبياننا يحتلّون الصفّ الأوّل، غير مكترثين بالحديث النبويّ الذي يرشدنا إلى أن يقف وراء الإمام وما يليه الكبار وأولوا العقول الراجحة؟

وبناء على هذا الحديث، كان الصفّ الأوّل خاصًّا بالعزّابة وإِرْوَانْ، والصفّ الثاني خاصًّا برؤساء العشائر والأعيان.

لدراسة القضايا الاجتماعية كانت الحلقة تستدعي ممثلي العشائر قصد استشارتهم واتّخاذ القرار معهم، والتعاون معهم في متابعة تنفيذها، وتجتمع عند ذلك معهم في السقيفة المجاورة للمئذنة في الطابق العلوي، خارج تَامْنَايْت. إلاّ أنّ ما وصلنا من القرارات يكاد يُعدّ على الأصابع. نحن مدينون للسيّد بُوسْكي الذي قام بنشر بعضها عام 1951، مترجمة إلى الفرنسية من شخص مجهول.

هذه القرارات صدرت عن الحلقة في الفترة ما بين 1184هـ/1770م و1335هـ/1916م حول المواضيع الآتية:

- الإسرافات المرتكبة في الأعراس والولادات والختانات والمآتم.
- الإسرافات المرتكبة في الأعياد والمواسم وعند رجوع الزوج من السفر.
- المهاداة عند الذهاب للاصطياف في البساتين والعودة منها.
- بعض التصرفات من طرف المدعوين والمدعوات للأعراس أو للعزاء.
- أحكام بالنفي إلى مدينة الجزائر.
- تدخّل عشيرة في شؤون عشيرة أخرى.
- التدخل لعزل أحد المقادم.
- شؤون خاصّة بالبدو.

إليكم الآن بعض ما ورد في هذه الاتّفاقات بشيء من التفصيل:

نستخلص من البند الرابع من القرار الأوّل في هذه المجموعة أنّه كان يُمنع على أهل العروس أن يزيدوا في تفريش غرفتها على ثلاثة فرش صوفية:

تْـنَاجْرَا (فراش غليظ يـثنّى ليقوم مقام الْمَطْرح)، سَاجُو (غطاء السـرير)، بُوهَتُّونْ (غطاء غليظ) [8].

ورد في القرار الصادر في محرّم 1184هـ/1770م تحجير ماكان يُهـدى لأهل العريس بمناسبة موسم الاصطياف، من تَزَمِّيطْ وتِفغْدَانِينْ وغيرهما عنـد الانتقال إلى البساتين، وما شابههما عند الرجوع منها خريفا.[9]

ومن القرار التالي، نستنتج أنّ غرفة العروس كانت تفرش بـالتراب.[10] وفي هذا القرار، نجد أنّ العريس يرافقه وزيران من حجبته إلى باب غرفتـه في الليالي الثلاث الأولى، ويمنع غيرهما من المرافقة كبارا وصغارا.[11]

في القرار المؤرخ يوم 10 جمادى الثانية 1258هـ/1841م، نقـرأ أنّ العزابة حجّروا عادة تَاكَرْوَايْتْ.[12]

أمّا القرار المؤرخ عام 1263هـ/1846م فإنّه يحجر صنع أكلة تِفتِّيـتِينْ لدى كلّ من أهل العريس والعروس.[13]

والقرار المؤرخ في ربيع الأوّل 1335هـ/1916م، ينص على أنّ العريس يُعطي لعروسه البكر قرطين من ذهب يزنان أربعين غراما.[14]

كانت هناك عادة في اليوم السابع من العرس، تسمّى الطرف، تتمثّل في وضع خمار برتقالي على رأس العروس، للدلالة على أنّها لم تعد بِكرًا. هـذه العادة أبطلت في عهد الشيخ عبد العزيز.[15]

8- G.-H. BOUSQUET: Recueil de délibérations à la mosquée de Beni-Isguen, 23.
9- Ibid, 26.
10- Ibid, 30.
11- Ibid, 30.
12- Ibid, 40.
13- Ibid, 39,42.
14- Ibid, 35-46.
15- Ibid, 23 et 32.

القرار المؤرخ يوم 1 شوال 1191هـ/1778م يتناول إصـدار الحكـم بالنفي إلى مدينة الجزائر لمدّة عامين، أو عشر سنوات، أو إلى الأبـد، علـى حسب وجود الشهود وعددهم.[16]

في القرار المؤرخ يوم 10 جمادى الثانية 1258هـ/1841م، ورد الحكـم ببطلان عقد مداينـة قاصر بدون حضور وصيّه، أو مداينـة امـرأة بـدون حضور وليِّها.[17]

والقرار المؤرخ في رجب 1198هـ/1784م، يؤكّد على عدم تـدخل عشيرة في الشؤون الداخلية لعشيرة أخرى.[18]

ونختم بالرجوع إلى القرار الثالث في المجموعة والذي يُخبرنا أنّ خلافـا كبيرا وقع في البلد بين العزّابة والأعيان، أدّى إلى انسحاب العزّابة إلى غرداية، تعبيرًا عن استيائهم، فتدخّلَ عزّابة القصور الأربعة المجاورة لفضّ النزاع.[19]

ومن جملة القرارت التي تتخذها الحلقة البراءة من شخص ثبتت شهادة ضدّه بارتكاب مخالفة شرعية أو اجتماعية، يتولّى الإعلان عنها في المحـراب كبير العزّابة.

ويعلن في المحراب كذلك عن ثبوت رؤية الأهلّة وعدمه، وعمّا يستجد في الأنظمة الاجتماعية المتعلّقة بالأعراس والمآتم وغيرها.

2- غـرفة الشيخ:

مدخلها في الأدرج المؤدّية من بيت الصّلاة إلى السطح، تمّت المحافظـة على بابها القديم.

16- Ibid, 39.
17- Ibid, 40.
18- Ibid, 35.
19- Ibid, 34.

أورد بالمناسبة قائمة مشايخ مسجد بني يزڤن بداية من القرن العاشر، وعددهم أربعة عشر:

- الشيخ بالحاج امحمّد بن سعيد
- عَمِّي عيسى
- بُوهُونْ بن يوسف
- عمي بالحاج صالح بن عمي عيسى
- عمي الحاج عبد الله بن عيسى المتوفى عام 1118هـ/1706م
- باباعيسى بن سليمان المتوفى عام 1147هـ
- عمي الحاج نوح المتوفى عام 1176هـ
- عمّي الحاج أحمد نجار المتوفى عام 1195هـ/1780م
- ضياء الدين عبد العزيز الثميني المتوفى عام 1223هـ/1808م، تولّى المشْيخة عام 1201هـ/1786م.
- أبو يعقوب يوسف بن حَمُّو بن عَدُّونْ المتوفى عام 1252هـ/1836م.
- الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان المتوفى بعد عام 1280هـ، عمّمه الشيخ بَابَا أَنْ يونس الغرداوي.
- الحاج امحمد بن عيسى زْبَارْ المتوفى عام 1304هـ/1887م.
- القطب الحاج امحمد طْفَيَّشْ المتوفى عام 1332هـ/1914م.
- الحاج صالح بن عمر لَعْلِي المتوفى عام 1347هـ/1928م، تولاّها عام 1336هـ/1917م.

والمعمول به أن تبقى زاوية الصدارة في مجلس القرآن بالمسجد شاغرة في انتظار تنصيب الشيخ الرسمي.

وحسب السيرة في تنصيب الشيخ، يعقد مجلس حاشد من العزّابة والطلبة والأعيان، ويلقي المرشح بمحضرهم درسا، ثمّ يقوم رئيس الحلقة الحاضر بتدوير العمامة على رأس هذا المرشح، ويطلق على هذا التتويج عرفيا "أُقُونْ أَنْ تَعْمَامْتْ" لبس العمامة، ويصبح منذئذ رئيس حلقته تلقائيا، ولو كان من آخرهم التحاقا بها[20]. وذكر لي فضيلة الإمام أنّ القطب طفيش لم يعمّم، وأنّ آخر شيخ بالعمامة في بني يزڤن هو الشيخ الحاج صالح بن عمر لَعْلِي.

3- غرفة الإمام:

مدخلها محاذٍ لمدخل الميضأة قديمًا (تَامْنَايْتْ الحالية)، تمّت المحافظة على بابها القديم كذلك.

كان لإمام المسجد حائك وقف خاص بوظيفته معلّق بأحد المنازل الموجودة بحي طَالَمْتْ. هذا الحائك يستعمله الإمام لصلاة الجماعة، ثمّ يتركه في غرفته عند الانصراف، مرتديا حائكه الشخصي.

4- غرفة المؤذّن:

هي الطابق الأرضي للمئذنة. تحتوي الآن على أجهزة تكبير الصوت وإرسال الأذان والدروس والبلاغات إلى المصليات. تشغيل هذه الأجهزة أضيف إلى مهام المؤذن.

يبدو لي من الصواب عدم تشغيل أجهزة التسميع عند انعقاد مجلس تلاوة القرآن، نظرا إلى أنّ ارتفاع صوت التلاوة يُربِك المصلين الذين يؤدّون تحيّة المسجد أو بعض النوافل، فلا يستطيعون أداء قراءة سليمة في خشوع، والأولوية في المسجد للصّلاة.

20- الشيخ محمد أيوب صدقي: السيرة تجسيد للسلوك المثالي، 65.

5- غـــرفة الوكيل:

تقع تحت مجلس تلاوة القرآن، سقفها جدّ منخفض، بحيث لا يمكنـــك الدخول إليها إلاّ حبوًا، ولا المكوث فيها إلاّ جالسا. مدخلها مـــن الصـــحن قرب الباب الرئيس للمسجد، وبابها قديم حوفظ عليه كذلك.

هذه الغرفة بمثابة بيت مال المسجد. يستقبل الوكيل ببابها من يُحضر ما عليه من الأوقاف في مناسباتها، ويسجلها في دفاتر خاصّة بها.

المصارف التي تنفق فيها هذه الأوقاف تسمّى وظائف، وعددها خمسة وأربعون، نذكر منها ما يُصرف في المسجد العتيق والمؤسّسات المحيطة به:

- وظيف العزّابة
- وظيف نوبة العزّابة
- وظيف إرْوَانْ
- وظيف أطفال المحاضر
- وظيف الزيت للإنارة
- وظيف الماء العذب
- وظيف بئر المسجد
- وظيف ماء الوضوء
- وظيف الميضأة وطوب الاستجمار
- وظيف الحطب لتسخين ماء الميضأة
- وظيف الحصائر
- وظيف المقمع
- وظيف الخزانة
- وظيف حلقة العلم

- وظيف ليلة الجمعة بعد المغرب (لمن تقدّم لأخذه)
- وظيف ليلة الجمعة بعد العشاء
- وظيف عشية الخميس
- وظيف ختمة الجمعة
- وظيف ختمة القرآن (عموما)
- وظيف الصيف
- وظيف الشيخ الحاج يوسف بين المغرب والعشاء
- وظيف مجلس الصيف سحرا
- وظيف بعد الفجر
- وظيف فطور الصائمين
- وظيف سحورهم
- وظيف اليوم الثالث من رمضان (أيوب بن حمو)
- وظيف اليوم الخامس عشر منه
- وظيف اليوم السابع والعشرين منه
- وظيف جُمع رمضان (الحاج موسى بن كاسي)
- وظيف نوبة رجب
- وظيف قراءة سورة الأنعام (في مسجد تَافِلاَلْتْ)
- وظيف بنيان المسجد

الوظائف الأخرى، وعددها ثلاثة عشر، تصرف خارج المســـجد، في موسم المقابر وفي بوجديرة وجبل أبي العبّاس (بُوعْمِيَّدْ) ويوم الزيارة. ومـــن بينها أيضا وظيف السدّ ووظيف التيوس.

واستَحدث الشيخ الحاج صالح لَعْلِي وظيفا جديدا سمّاه الوظيف العام، ليكون للوكيل حقّ التصرّف حسب المصلحة.

الفصل الرابع

عمارة المسجد العتيق

1- إنارة المسجد:

هي من مهام المؤذّن قديما وحديثا. كان أوّل من يدخل إلى المسجد وآخر من يغادره. حتّى عملية تسخين الماء في الميضأة كانت على عاتقه.

كان يقوم يوميا، بعد تغيير ملابسه، بين أذان العصر والإقامة، بتفقّد القناديل، وذلك بإضافة الكمية اللاّزمة من زيت الزيتون والفتائل. كانت له مشكاة قرب مدخل الميضأة القديمة يضع فيها إبريق الزيت وغيره من لوازم الإنارة. هذه القناديل كان بعضها معلّقًا بواسطة بكرات حديدية، وبعضها يوضع على نتوءات في عدد من الأعمدة.

عندما ينفد ما لديه في الإبريق يقصد المؤذّن الوكيل في غرفته ليملأه من المحبس. أمّا المخزن العام لزيت الإنارة فيوجد تحت الصحن ومدخله من سقيفة الأنعاش.

هذا الزيت يجمع شطره في حفل المولد النبوي، والبقية خلال شهر رمضان في صورة أوقاف معلّقة بالديار والبساتين.

قبيل أذان المغرب وفي السحر يقوم المؤذّن بإشعال القناديل بواسطة شمعة. وهو الذي يتولّى إطفاءها بعد صلاة العشاء وصلاة الفجر.

هناك ثلاثة قناديل تبقى مشتعلة طول الليل: أحدها عند دلاء ماء الشرب، والثاني لدى المدخل الشمالي لبيت الصّلاة، والثالث عند المدخل الجنوبي[21]

21- مقابلة مع الشيخ باحيو الحاج محمد أبصير في صائفة 2008 بالمسجد العتيق.

في عام 1936م، زوّدت بني يزقن بالكهرباء. لكنّ المرحوم الإمام محمّد ابن باحمد يحي لم يقتنع بتزويد المسجد بها إلاّ عام 1954م، وذلك في عهد المؤذّن المرحوم الحاج يوسف بن محمّد عبد الرحمن المتوفى عام 1963.

الآن تقتصر الحلقة على جمع الزيت في مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي. أمّا الزيت الذي كان يؤتى به فيما سواها من المناسبات، فيقع تقويمه ويجمع نقودا.

2- عمارة المسجد في كامل الأيّام:

تقام في المسجد الصلوات الخمس والسنن الراتبة يوميا، إلاّ صلاة الظهر التي توقّف أداؤها فيه أيّام الجمعة، عندما قرّرت الحلقة إقامة صلاة الجمعة في المسجد الكبير بطَالَمْتْ، بداية من منتصف سبتمبر 2000، وصلاة العصر من جمعات المقابر الثماني والتي لا تقام إلاّ في المسجد الكبير كذلك.

وقبل إقامة صلاة الجمعة في البلدة، كان الإمام يدعو بدعاء خاص بعد الظهر من يوم الجمعة، يستهلّه بما تستهل به خطبة الجمعة، ويشتمل على الرضا على الخلفاء الراشدين والأئمّة الرستميين.

كانت تؤدّى إلى عهد قريب صلاة الضحى بالمسجد العتيق جماعة.

ينعقد في المسجد العتيق مجلس لتلاوة القرآن ثلاث مرّات في اليوم:

- وقت السحر بين الأذان والتثويب لصلاة الفجر.
- بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.
- بين صلاتي المغرب والعشاء.

عموما لا يُسمح لمن خارج المجلس أن يقرأ جهرة. والحالة الوحيدة التي يسمح فيها ذلك هي مناسبة تحلّق سبعة من العزّابة بعد صلاة العيدين والخطبة، لتلاوة سورة الدخان[22].

22- الشيخ محمد أيوب صدقي: المصدر السابق، 96.

يشترط على من أراد الانضمام إلى مجلس تلاوة القرآن ارتداء الحائك، وينبغي عليه -إن لم يكن حافظا لكتاب الله- أن يكون على الأقلّ قادرا على مسايرة التلاوة الجماعية من دون الاعتماد على المصحف. ويقتضي ذلك وصوله إلى السورة التي هي بصدد تلاوتها في المجلس، بكونه قد قرأها على شيخ ملمٍّ بقواعد التلاوة الصحيحة، واستظهرها عليه. أمّا أخذُها من المصحف بدون عرضها على الشيخ فذلك ممنوع، لأنّه سيتعرّض للخطأ في القراءة مهما بلغ مستواه في اللغة العربية[23]. من جهة أخرى، فإنّ استحقاقه للوقف الخاص بالمتحلّقين في المجلس مرهون بتحقّق الوصول إلى السورة على الشروط السابقة.

3- ما يخصّ عشية الخميس وليلة الجمعة:

تبدأ تلاوة القرآن من أوّله بعد أداء صلاة الظهر من يوم الخميس، وتتواصل بعد صلاة العصر إلى وقت المغرب. ثمّ تستأنف من حيث انتهت بصدارة إرْوان، بينما يستقل العزّابة بمجلس خاص بهم لتلاوة سورة الكهف وما يليها إلى وقت أذان العشاء.

وبعد أداء الوتر تلتئم مجالس تِخَرُّوبِينْ (أنصاف أثمان القرآن) لِما تبقّى من التلاوة، ومجلس يتصدّره العزّابة لتلاوة سورة الأنعام، ثمّ يلتحق بهذا المجلس كلّ من أتمّ حصّته (خَرُّوبَتَه). أمّا الختمة فتؤجّل إلى ما بعد صلاة الفجر.

جرت العادة منذ عقود إدراج درس للوعظ والإرشاد بين أذان العشاء وصلاتها، اغتناما لفرصة حضور عدد كبير من المصلّين بالمسجد.

23- سليمان بن عيسى باكلي: التلاوة الصحيحة، ج1، ط2، ص23.

4- ما يمتاز به شهر رمضان:

بعد صلاة المغرب من كلّ يوم يقوم النّاس فرادى للتنفل والاحتياط بخمس صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. تقام صلاة التراويح، أربعا وعشرين ركعة، بعد درس الوعظ والإرشاد وصلاة العشاء. وقد كان الترتيب قديما على عكس ذلك: التراويح فالعشاء ثمّ الوعظ والإرشاد.

وهناك درس آخر للطلبة بين الظهر والعصر كان يُلقيه عريف إرْوان في الفرائض (فقه المواريث) خاصّة.

أمّا مجلس تلاوة القرآن، فلا يتوقف طيلة هذا الشهر، ليلا ولا نهارا، إلاّ عند إقامة الصلوات المفروضة وسننها المؤكّدة. وقت التراويح يتواصل المجلس بالسطح في السقيفة المجاورة للمئذنة.

قبل المغرب بحوالي ساعة ينتقل مجلس التلاوة من بيت الصّلاة إلى صحن المسجد، حيث توزّع الأوقاف والصدقات من تمر وخبز وطعام وغيرها.

5- صلوات موسمية:

تقام بهذا المسجد صلاة مائة ركعة ليلة عاشوراء وليلة منتصف شعبان، وكذلك صلوات الخسوفين والاستسقاء.

أمّا صلاة العيدين فقد حوّلت منذ سنوات إلى المسجد الكبير.

من جملة الصلوات الموسمية صلاة وداع رمضان ليلة أوّل شوال، ركعتين طويلتين يقرأ الإمام في كلّ منهما الفاتحة والسور القصار السبع سبع مرّات. يتلو هذه الصّلاة دعاء خاص يشتمل على الصلاة على الملائكة والأنبياء، يكرّر الإمام مقاطعها عشر مرّات ويردّد جمهور المصلّين بعده كلّ مقطع.

6- مجـالس موسمية لتلاوة القرآن:

يوزّع القرآن على ستّ عشرة خروبة في المناسبات الأربع الآتية:

- عشية عاشوراء بعد الظهر إلى المغرب وتكون الختمة قبل صلاة المغرب.
- ليلة عاشوراء بعد العشاء وتكون الختمة بعد صلاة الفجر.
- ليلة أوّل رجب بعد العشاء وتكون الختمة بعد صلاة الفجر.
- ليلة النصف من شعبان بعد العشاء وتكون الختمة بعد صلاة الفجر.

أضيفت مؤخرا إلى هذه المجالس ثلاثة أُخر لأسباب أمنية:

- عشية عيد الفطر بعد العصر، وكان من قبل ينعقد في حوض مقبرة الشيخ بالحاج.
- عشية يوم عرفة بعد العصر، وكان من قبل ينعقد في مقام الشيخ أبي العبّاس (بوعميّد).
- عشيّة عيد الأضحى بعد العصر، وكان من قبل ينعقد في حوض مقبرة الشيخ بالحاج.

في ليلة المولد النبوي مجلس خاص بين المغرب والعشاء، مـدّة حفـل القناديل، كانت تتلى فيه "نواوير القرآن". تكرّر فيه سورة الإخلاص مائـة مرّة. وفي الدعاء تكرّر الصّلاة على النبي مائة مرّة كذلك.

7- دروس الوعظ والإرشاد في غير رمضان وليالي الجمعة:

في حالة وجود شيخ الحلقة -بهذا المنصب- يعتبر من مهامـه القيـام بدروس مختلفة، وأكثرها في المواد الشرعية واللغوية، بعد صـلاة الفجـر أو الظهر، يحضرها الطلبة إروان ومن شاء من العامّة وراء الحلقة. ومن مهامـه الجلوس صباح الجمعة بعد طلوع الشمس للطلبة خاصّة، يتلقـى أسـئلتهم بإشراف العريف.

كانت هذه الدروس تلقى في المجلس المجاور لجناح النساء، حيث تتمكّن الراغبات من الاستماع من وراء الستار[24].

24- الشيخ محمد أيوب صدقي: المصدر السابق، 97.

الفصل الخامس

المؤسّسات المحيطة بالمسجد العتيق

1- دار إرْوَانْ :

كانت لهيئة إروان دار قبلة المسجد، قدّرت مساحتها بثلاثة وستّين مترا مربعا، وكان هؤلاء الطلبة يزاولون فيها دراستهم في العلوم الشرعية وقواعـد اللغة العربية، تحت إشراف عريفهم.

وعندما بنيت الحجبة الجديدة على أنقاضها وأنقاض الحجبة القديمة ودار مجاورة لهما، أصبحت دار إروان هي الطابق العلوي للبناية الجديدة.

يحتوي اليوم هذا الطابق على قاعة فسيحة تضمّ مكتبة متواضعة. والقاعة والمكتبة مهجورتان منذ عقود من الزمن، في انتظار تسمية عريف لهذه الهيئة.

2- المحـاضر (الكتاتيب):

عددها ثلاث. اثنتان كانتا متجاورتين، لهما مدخل مشترك، في الموقـع الذي بني عليه الجزء الأكبر من المدرسة الجابرية بين 1960 و1962، والثالثـة أقيم مكانها عام 1964، مرفق كُتب على بابه "محل خاص بالنساء"، قـدرت مساحتها باثنين وثلاثين مترا مربعا.

نتأسف لعدم المحافظة على هذه المحاضر، بصفتها معالم تاريخيـة ثمينـة، ونشكر الأستاذ الفنان أحمد بن عيسى باحريز الذي حاول تخليدها برسـوم مستوحاة ممّا علق في ذاكرته. اخترت من بين هذه الرسوم ثلاثة رمزت إليها بالحروف أ، ب، ج: أ وب للمحضرتين المتجاورتين وج للمنفردة.

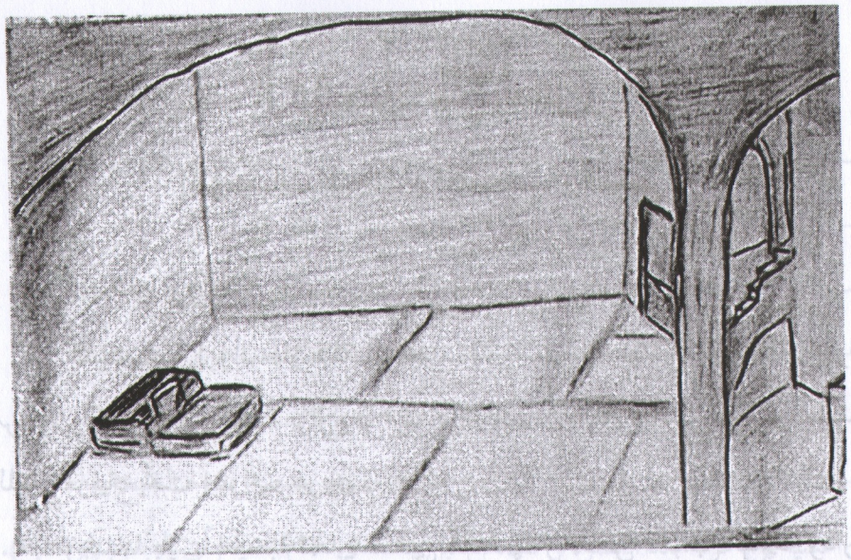

الرسم أ

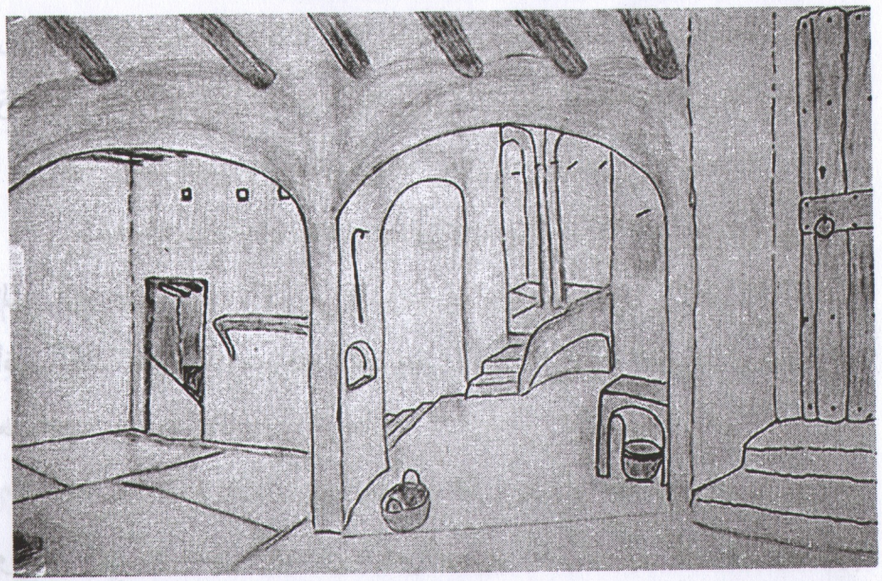

الرسم ب

المحضرتان المتجاورتان

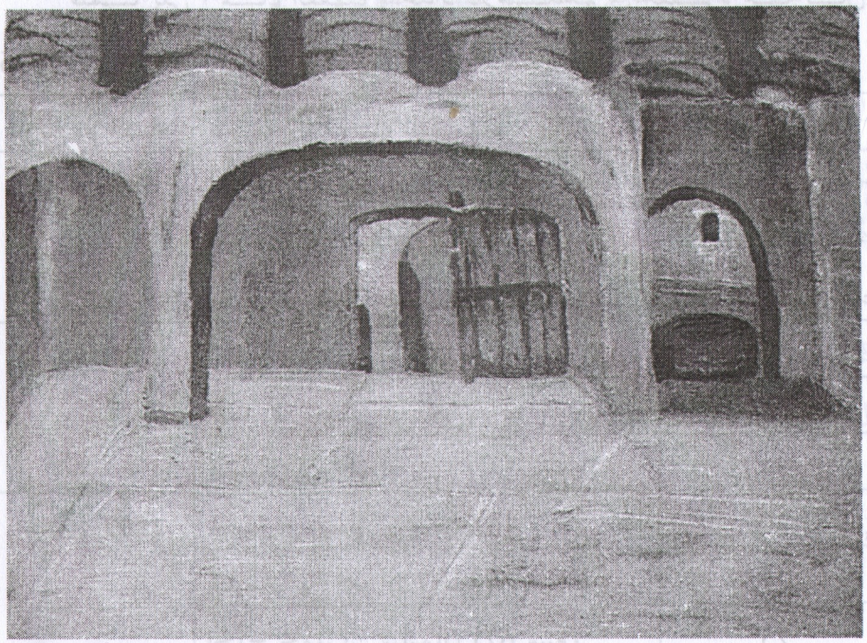

الرسم ج **المحضرة المنفردة**

يتولّى تعليم الأطفال في هذه المحاضر، أصلا، ثلاثة أعضاء من حلقة العزّابة، يُطلق عليهم اسم الفقهاء (لْفَقْيَانْ بالمزابية).

كان التلاميذ يزاولون دراستهم في المحاضر كامل أيّام الأسبوع، ما عدا يومي الخميس والجمعة، في ثلاث فترات: الأولى من السحر إلى ما بعد طلوع الفجر شتاء، والثانية بين صلاتي الظهر والعصر، والثالثة بين صلاتي المغرب والعشاء شتاء كذلك.

وبعد أداء صلاة العصر، يُحضِر الفقهاء من المسجد الحصّة اليومية من التمر، يتمّ توزيعها على التلاميذ، وينصرفون بعد الدعاء.

توقف هذا النظام نهائيا عام 1960م.

فيما يلي أسماء الفقهاء وأعداد تلاميذهم في الفترة ما بين 1896م و1936م:

تاريخ الإحصاء	أسماء الفقهاء	أعداد التلاميذ
جوان 1896	يحي بن الحاج سليمان	إجمالا
	الحاج عيسى بن حمو	بين 60 و75 صيفا
	الحاج يوسف بن احمد	وبين 90 و120 شتاء
نوفمبر 1902	الحاج يوسف بن احمد	30
	محمد بن عيسى بن يحي	25
	سليمان بن حمو	24
سبتمبر 1907	محمد بن عيسى بن يحي (46 سنة)	30
	سليمان بن حمو (72 سنة)	27
	الحاج محمد بن سليمان (62 سنة)	25
جانفي 1921	سليمان مسكيفوح	18
	الحاج عيسى بن الحاج سعيد	15
	الحاج عيسى بن داود	25
فيفري 1924	الحاج عيسى بن الحاج سعيد بن يوسف	20
	الحاج بكير بن الحاج حمو بن بكير	23
	الحاج عيسى بن إبراهيم الشقمة	20
سبتمبر 1925	الحاج عيسى بن الحاج سعيد بن يوسف	10
	الحاج بكير بن الحاج حمو بن بكير	15
	يوسف بن محمد بن يوسف عبد الرحمن	8
أفريل 1936	الحاج عيسى بن إبراهيم الشقمة	25
	الحاج يحي بن سليمان ابن ادريسو	25
	محمد بن يوسف بابانو	25

تطوّر التعليم التابع للمسجد تطورا كبيرا:

- في سنة 1927، أضاف الشيخ الحاج صالح لَعْلِي جناحا للمحضرتين المتجاورتين، وشرع في تطوير التعليم فيه. هذا الجناح اتّخذ اسم مدرسة الرشاد عام 1940. وبعد عودة الشيخ محمّد بن يوسف بابانو إلى حلقة العزابة، سمّاها باسم المدرسة الجابرية بداية من 1949م.

- في 11 مارس 1962، دشنت المدرسة الجابرية الجديدة على أنقاض المحضرتين ومدرسة الرشاد سابقا، وقد ضمّت إليها مدرسة العرفان. مساحة المدرسة الجديدة قدّرت بـ192 مترا مربعا.

- بعد ذلك، أضيف إليها جناح على الجهة الغربية. وأمام تزايد التلاميذ حوّلت مخازن التمر الموجودة فوق "المسجد الجديد" إلى أربعة أقسام إضافية، في بداية السبعينات.

- في سبتمبر 1976، آوى المسجد أقسام المدرسة الفتية لتعليم البنات التي أُنشئت بمحل مدرسة الاستقامة، فأصبحت فرع البنات من المدرسة الجابرية.

- عام 1981، تمّ تدشين المدرسة الجابرية التي أسّست على أرضية أمرصيد، وذلك في عهد الشيخ محمّد بن يوسف بَابَائُو رحمه الله.

- فُتحت ملحقة أُجُّوجَنْ للمدرسة الجابرية في سبتمبر 2003.

- وفُتحت ملحقة تَافلاَلْتْ في سبتمبر 2007.

- الأشغال جارية لبناء ملحقة مُومُّو.

3- حجبة المسجد:

كان موقعها تحت إحدى المحضرتين المتجاورتين. وفي سنة 1926، أشرف الشيخ الحاج صالح لَعْلِي على بناء حجبة جديدة قبلة المسجد، قدّرت مساحتها بستة وثلاثين مترا مربعا، وكانت تسمّى حجبة الطلبة.

أعيد بناؤها وتوسيعها ودشّنت في أفريل 1972، واستغني عن حجبة العوام التي بنيت قرب الباب الغربي للبلد من طرف الجماعة عام 1921.

وعندما باتت لا تتّسع للمحتفلين بالأعراس، بنيت عام 1993 الحجبة الحالية، خارج القصر غير بعيد عن السدّ الصغير، وبقيت الأخرى تستعمل ناديا ثقافيا تابعا للمؤسّسة الجابرية.

4- السوق:

السوق الأولى للبلد مكانها الشارع القبلي للمسجد العتيق. بتوسع المدينة حوّلت إلى شارع صالح أُوعْلِي، ثمّ إلى حوش لاَلَّهْ عَشُّو الذي وقفته صاحبته ووضعته تحت تصرّف الحلقة.

فالعزّابة هم المراقبون لنشاط السوق، يوظفون الدلالين ويحدّدون لهم أجرة عملهم، ويعفونهم من مناصبهم أو يوقفونهم مؤقتا إن كانوا في البراءة حتّى يتوبوا، أو صدرت منهم مخالفة لأنظمة السوق. ويتحاكم النّاس إلى العزابة في أيّة مشكلة تطرأ بين المتعاملين من غبن وغيره. وهم يلاحظون ما يرد السوق من البضائع، فيمنعون بيع المحرّمات وبيع المغصوبات.

وعندما كان أهل البادية، إلى الخمسينات من القرن الماضي، يقدمون ببضائعهم من حطب وفحم ولبن وسمن وغيرها، لا يتولّون البيع بأنفسهم، بل تسند المهمّة لقيّم يعيّنه المسجد، وهو ما يعنيه الحديث من بيع الحاضر للبادي وتلقي الركبان[25].

ونظرا للتنافس بين مدن الوادي، ولتوفير الأمن لقوافل البدو التجارية، اشترى المسجد، أواخر ربيع الثاني عام 1297هـ/1880م، ستّ قطع أرضية كانت معدّة لبناء مساكن، لتتركها ساحة فارغة تبيت فيها هذه القوافل داخل القصر. هذه الساحة تعرف باسم ساحة بُوجْدِيرَهْ.

من جهة أخرى، فإنّ الحلقة هي التي تحدّد عطلة السوق بمناسبة أحد العيدين، التي تدوم بين أربعة أيّام وأسبوع، باعتبار أنّ فتح السوق لا يكون إلاّ بعد صلاة العصر من يوم الجمعة أو يوم الثلاثاء، ويعلن عن ذلك في محراب المسجد العتيق.

25- نفس المصدر، 99.

خاتمة

لا شكّ، أخي القارئ، أنّك في هذه الجولة التاريخية الشيّقة، قد تعرّفت على كثير ممّا كنت تجهله حول هذا المسجد العتيق، سواء في جانبه المعماري أو في جانب الوظائف المتعدّدة التي يقوم بها في مجال العبادات والتربية والتعليم، وفي المجال الاجتماعي والاقتصادي.

ولكي يكون البحث مركزا ومختصرا، لم أتعرّض لما ليس له علاقة مباشرة بهذا المعلم الحضاري، رغم كونه من مهام حلقة العزّابة، نظرا إلى وفرة المؤلفات التي عنيت بالتعريف بالحلقة ومهام أعضائها ومجالات أنشطتها داخل المسجد وخارجه.

أعترف بقصور البحث فيما يخصّ التأريخ لمراحل التوسيع التي شهدها المسجد العتيق، وأدعو المختصين في التراث المعماري أن يتفضلوا بإجراء الخبرات اللازمة لتحديد التواريخ الناقصة، بواسطة تقنيات التزمين الكثيرة.

ولعلّك لاحظت، أخي القارئ، أنّني اجتنبت تناول تقنيات الإنشاء ومواد البناء والمصطلحات الخاصّة بفنّ المعمار لانعدام معرفتي بها، عملا بقوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. [سورة الإسراء: الآية 36].

وفي الأخير، أشكر الأستاذ يحي بن عيسى بوراس على التوصيات التي تفضّل بها، كما أشكر الشيخ الحاج محمّد بن عمر أبصير -حفظه الله- على سعة صدره والإجابة على استفساراتي المتكرّرة، دون أن أنسى بقية الأساتذة الذين ساعدوني لإتمام هذا البحث.

ومع كلّ هذا، أقول إنّ الموضوع لمّا ينل حظّه بعد من الدراسة والتنقيب. ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

1- د. بالحاج معروف: العمارة الإسلامية -مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية، دار قرطبة، الطبعة الأولى، الجزائر 2007.

2- فرحات الجعبيري: نظام العزّابة عند الإباضية الوهبية في جربة، المطبعة العصرية، تونس، 1975.

3- محمّد أيوب صدقي: السيرة تجسيد للسلوك المثالي، 2003.

4- يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، الطبعة الثانية، غرداية، 2006.

5- G.-H. BOUSQUET : Recueil de délibérations à la mosquée de Beni-Isguen, 1951.

الفهرس

مقدمة أ

مدخل 1

1- تأسيس بلد بني يزڤن 1

2- مسجد تَافِلاَلْتْ 2

الفصل الأوّل: مراحل بناء المسجد العتيق 3

1- نواة المسجد 3

2- التوسيع الأوّل 4

3- التوسيع الثاني 6

4- التوسيع الثالث 8

5- التوسيع الرابع 9

6- التوسيع الخامس 10

7- التوسيع الأخير 11

8- أهمّ التغييرات التي وقعت في بيت الصّلاة والصحن وسطحه بعد التوسيع الأخير 13

الفصل الثاني: المرافق المكملة للمسجد العتيق 16

1- الأجنحة الخاصة بالنساء 16

2- المراحيض 17

3- الميضأة 18

4- سطوح بيت الصلاة 19

5- سقيفة الأنعاش 21

الفصل الثالث: المحـــلات الخاصّة بالعزّابة 22

1- تَامْنَايْتْ 22

2- غرفة الشيخ 25

3- غرفة الإمام 27

4- غرفة المؤذن 27

5- غرفة الوكيل 28

الفصـــل الرابع: عمارة المسجد العتيق 30

1- إنارة المسجـــد 30

2- عمارة المسجد في كامل الأيام 31

3- ما يخصّ عشية الخميس وليلة الجمعة 32

4- ما يمتاز به شهر رمضان 33

5- صلوات موسميـــة 33

6- مجالس موسمية لتلاوة القرآن 34

7- دروس الوعظ والإرشاد في غير رمضان وليالي الجمعة 34

الفصل الخامس: المؤسّسات المحيطة بالمسجد العتيق 35

1- دار إروان 35

2- المحـــاضر (الكتاتيب) 35

3- حجبة المسجد 39

4- الســـوق 40

خـــاتمـــة 41

المصادر والمراجع 42

الفـــهـــرس 43

I.S.B.N 9961-845-15- 8 ردمك